الإنسانُ المُنفَصل: الفردانيَّة الحديثة وأزمةُ المعنى في المُجتمعاتِ الغربيَّة

■ د. محمود كيشانه[1]

ملخّص

تعـدّ قضيَّة الفردانيَّة الغربيَّة الحديثة من القضايا الخطيرة التي جعلت الإنسـان منفصلاً عن أسرته ومجتمعه ودينه، ومن ثَمَّ حاولنا في دراسـتها استكشـاف دورها في تدمير الإنسان الذي جعلـت منه جسـدًا لا روح فيـه، حاملاً لقب الإنسـان المنفصل، وإذا كانت علاقـة الفردانيَّة بالإنسان المنفصل محورًا رئيسًا في هذه الدراسة، فإنَّ من محاورها أيضًا الكشف عن مغذِّياتها التـي بنت عليها اتجاهها، وصنعت منها جدارًا عازلاً بين الإنسـان والآخر، أدَّى لفصله تمامًا عن هُويَّته الاجتماعيَّة، كالفلسفة المادّيَّة التي رسّخت النظرة الماديَّة في المجتمع الغربي بكلّ أبعادها المقيتة، والفلسـفة الوجوديَّة التي عمدت إلى التشـكيك في كلّ ما هو ديني وروحي، والفلسـفة البراجماتيَّـة التي وطَّنت مبدأ النفعيَّة الذي جعل الإنسـان يبحـث فقط عن منفعته ولو على حسـاب القِيم والمبادئ الإنسـانيَّة، وهي كلّها من الفلسفات والمذاهب التي غذّت الفردانيَّـة، وأنتجت الإنسـان المنفصل. وآخر محاور هذه الدراسـة بيان أثر الفردانيَّة السـلبي والخطير في كل من الفرد والأسرة والمجتمع والدين.

الكلمات المفتاحية: الفردانيَّـة الحديثـة، الإنسـان المنفصـل، الوجوديَّـة، الماديَّـة، البراجماتيَّة، أزمة المجتمعات الغربيَّة.

١ - كاتب وباحث مصري، حاصل على دكتوراة الفلسفة، جامعة القاهرة.

Separated Man:
Modern Individualism, Crisis of Meaning in Western Societies

■ Dr. Mahmoud Keeshana[1]

Abstract

The issue of modern Western individualism is one of the most serious topics that has led to the separation of humans from their families, societies, and religions. In this study, we have attempted to explore its role in the destruction of the human being, reducing them to a mere body devoid of spirit, earning the title of the separated individual. While the relationship between individualism and the separated human being is the central focus of this study, another key aspect is uncovering its influences that shaped its direction and created a barrier between the individual and others. This separation led to the individual's complete detachment from their social identity. This is such as materialistic philosophy, which entrenched a materialistic worldview in Western society with all its negative dimensions; existentialism, which sought to question everything religious and spiritual; and pragmatism, which institutionalized the principle of utility, causing individuals to focus solely on their personal benefit, even at the expense of human values and principles. These are all philosophies and doctrines that nourished individualism and produced the isolated human being.

Keywords:

Modern Individualism, Separated Individual, Existentialism, Materialism, Pragmatism, Crisis of Western Societies.

1 -Egyptian writer and researcher, holding a PhD in Philosophy - Cairo University.

مقدِّمة:

لا شـكَّ في أنَّ الإنسـان كائـن اجتماعـي بطبعـه، وتلك حقيقـة تؤيِّدها علـوم: الاجتماع، والأنثروبولوجيا، والتاريخ، والعمران؛ فقد نشـأ في ظلِّ الجماعة عـاش فيها وتعايش معها منذ وطأت قدمه الأرض، ولكن الإنسان حينها كان يدرك أنَّ الجماعة تعني التنازل عن الأنانيَّة والأثرة، فما دام يعيش في جماعة فيجب أن يتنازل عن شخصانيَّته وفردانيَّته، وإلا سيتحوَّل المجتمع إلى غابـة يأكل فيها القـويُّ الضعيفَ، وقد حدث ذلك في فترات زمنيَّة عدّة. لكن الإنسـان في ظلِّ الفلسـفات الغربيَّـة الماديَّة صار أكثر بُعدًا عن هذه الجماعة، حاملاً لـواء الفردانيَّة المقيتة التي كانت وبالاً عليه نفسيًّا واجتماعيًّا ودينيًّا.. إلخ.

إنَّ أسـوأ ما أفرزته لنا الحضارة الغربيَّة بروافدها: التنويريَّة والعلمانيَّة والليبراليَّة والرأسـماليَّة وغيرها أنَّها أخرجت الإنسـان من حيِّز الجماعة إلى حيِّز الفرد، من الجماعة التي تراعي إنسانيَّة الإنسان، إلى الفردانيَّة التي تخاطب فيه حيوانيَّته وملذَّاته وشهواته. هذا من شأنه أن يقود الأسرة إلى حالـة من التفكُّك، والمجتمـع إلى الانحلال بل يقود إلى انزواء الديـن جانبًا؛ ليحلّ محلَّه الإلحاد الذي يخاطب شهوات الإنسان وملذَّاته تحت مظلَّة الفلسفات الماديَّة المقيتة.

ومـن ثَمَّ تبدو أهميَّـة هذا الموضوع في أنَّه يلقي الضوء على الفردانيَّة الحديثة بوصفها سـببًا في تحوُّل الإنسان إلى كائن فرداني منقطع عن الأسرة والمجتمع والإله. إنَّ الإنسان الذي يغلّب شهوانيّته وملذَّاته ومصلحته الشخصيَّة على ما عداها، فإنَّه يصنع جدارًا عازلاً بينه وبين المجتمع الذي يؤسِّس لمصلحة جميع أفراده دون استثناء، ما يقود إلى انفصال الإنسان كليَّة، فيصبح إنسانًا منفصلاً عن المجتمع.

كما يهـدف إلى بيان المغذِّيـات الفكريَّة والفلسـفيَّة الغربيَّة التي قادت عـبر قرون إلى هذه

الفردانيَّــة الغربيَّة، بحيث قادت إلى الانفصال لا إلى الاجتماع، والانقطاع لا التواصل؛ إذ كانت هذه المغذِّيات بمثابة المصادر الرئيسة والمرجع الحقيقي لهذا التيَّار.

وأخيراً يهدف إلى بيان الآثار المدمِّرة التي أفرزتها الفردانيَّة الغربيَّة، وخطورتها على الإنســان ذاته والمجتمع والجنس الإنساني والدين؛ إذ مما لا شك فيه أنَّها صنعت إنسانًا منفصلاً تمامًا عن إنســانيَّته. ومن هذه الآثار: الشعور باللا جدوى، والانتحار، والإدمان، وفقدان الانتماء، وذوبان الهويَّة، وغيرها من الآثار.

ومن ثَمَّ يمكن القول إنَّ الإشــكاليَّة الرئيســة التي ينطلق منها هذا الموضوع هي كيف أنتجت الفردانيَّة الغربيَّة إنســانًا منفصلاً أدَّى إلى أزمة المعنــى في المجتمعات الغربيَّة؟ وفي ضوء هذه الإشكاليَّة الرئيسة تتشكَّل مجموعة من الإشكاليَّات الفرعيَّة، وهي:

ما مفهوم الإنسان المنفصل؟ وما علاقته بالفردانيَّة الحديثة؟

ما المغذّيات الفكريَّة والفلسفيَّة الغربيَّة التي قادت عبر قرون إلى هذه الفردانيَّة الغربيَّة، وقادت الإنسان إلى الانفصال في المجتمع الغربي؟

ما الآثار المدمــرة التي قادت إليها هذه الفردانيَّة، بحيث تــؤذن بخراب هذه المجتمعات من الداخل؟

إنَّ المنهج المتَّبع هو المنهج التحليلي النقدي الذي يحلِّل قضيَّة الفردانيَّة الحديثة والإنســان المنفصل وتأثيرها في المجتمعات الغربيَّة، ثم ينقدها وفق أسس عقليَّة معرفيَّة ودينيَّة عقديَّة.

أوَّلًا: الإنسان المنفصل والفردانيَّة الحديثة:

الإنســان المنفصل هو ذلك الإنســان الذي يُعلي من قيمة الأنا على الآخر في تلبية احتياجاته الفردانيَّة أو الشــخصانيَّة على ما عداها، على حســاب المجتمع كلّه، فيصنع بذلك جدارًا عازلاً بين الأنا والمجتمع، فيبتعد شيئًا فشيئًا عنه إلى أن يحدث الانفصال التام.

ومن ثَمَّ فإنَّ الإنسان المنفصل قطع كل الروابط الاجتماعيَّة وقِيم الجماعة، مرتضيًا أن يعيش بنفسه ولنفسه، فنفسه أو ذاته هي حصنه الحصين الذي اتخذه بديلاً آمنًا بالنسبة إليه عن المجتمع بروابطه وقِيمه. وقد صارت الفردانيَّة هي السمة الغالبة في المجتمعات الغربيَّة التي صارت أشدّ

انعزاليَّة وانفصالاً، ومن ثَمَّ كان الإنسان المنفصل بفردانيَّته بعيدًا عن النباهة الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، وأي قضيَّة بعيدة عن هاتين النباهتين إنَّما «هي استحمار قديم أو جديد مهما كانت مقدَّسة»[١].

إنَّ الإنسان المنفصل هو نتاج طبيعي للفردانيَّة الحديثة التي قامت فلسفتها على التخلِّي عن القِيم والروابط الاجتماعيَّة، وتحوَّلت من مجرَّد فلسفة إلى قوَّة حاكمة؛ حيث إنَّ «الفردانيَّة، التي تُعلي من شأن الفرد وتضع تحقيق الذات فوق كلّ اعتبار، تطوَّرت من كونها مجرَّد فلسفة اجتماعيَّة إلى قوَّة مهيمنة تشكِّل الفكر والسلوكيَّات عبر مختلف الثقافات. مع تراجع تأثير القِيم الجماعيَّة والروابط الاجتماعيَّة، أصبحت المجتمعات أكثر تشظيًّا وانعزالاً؛ حيث يركِّز الأفراد بشكل متزايد على تحقيق مصالحهم الشخصيَّة دون الالتفات إلى المصلحة العامة»[٢].

لكن المغذِّي الأكبر والمصدر الرئيس في ما آلت إليه المجتمعات الغربيَّة من قضيَّة الإنسان المنفصل كان الفلسفة الماديَّة بكل أبعادها، تلك الفلسفة التي اهتمَّت بكلّ ما هو مادّي حسِّي، وأبعدت كلَّ ما هو روحاني ديني من قاموسها حتَّى صار تحقيق اللذَّة الفرديَّة هو المنهج المتَّبع والطريق الوحيد دون مراعاة الدين أو التقاليد والأعراف الاجتماعيَّة.

ويعدّ مفهوم الفردانيَّة، كمفهوم الإنسان المنفصل، من المفاهيم التي ليس عليها إجماع من حيث تحديدها، فقد اختلفت الأقوال في تعريفه، فضلاً عن إلباسه شيئًا من الغموض كما في أسلوب بعض المفكِّرين المعاصرين[٣]، حتى إنَّ بعضهم ذهب إلى عدم إمكانيَّة تعريفها[٤]، كـ (ميشيل فوكو -Michel Foucault)[٥] الذي ذهب إلى استحالة ذلك[٦]، لكن هذا الرأي ليس مقبولاً على الإطلاق؛ إذ يمكن بسهولة من خلال التأمُّل في الفردانيَّة بوصفها واقعًا، ومن خلال التأمُّل في خصائصها، وما تؤول إليه أن نستنتج بسهولة مفهومها.

---

١ - علي شريعتي: النباهة والاستحمار، ص٩٦.
٢ - محمد علي عز الدين: الفردانية: جذورها، آثارها الكارثية والبديل الإسلامي.
٣ - انظر: كريستوفر باتلر: ما بعد الحداثة، ص١٤.
٤ - انظر: نورة عابد، مفهوم الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص٢٤٤.
٥ - فيلسوف فرنسي ((١٩٢٦ - ١٩٨٤ ممن تأثَّروا بالبنيويَّة.
٦ - انظر: عبد الحميد العبيدي: قراءة نقدية في الأسس الأيدلوجية للفردانية وراهنيَّتها في المجتمعات العربية، ص١٢٩.

لكن في التحليل الأخير، تعدّ الفردانيَّة الحديثة فلسفة اجتماعيَّة تجعل الإنسان في بؤرة الاهتمام من خلال جعل مواقف الفرد وقراراته على أساس من منفعته الشخصيَّة، بحيث تعلو هذه المنفعة على التقاليد الاجتماعيَّة والقواعد الدينيَّة التي تتوارى خجلاً أمامها. وهذا المفهوم ينتقص من الإنسان ذاته التي يجب أن تعلو إنسانيَّته على ملذَّاته ونزواته الفرديَّة، كما أنَّه يتعارض مع القِيم الدينيَّة التي حثَّت على البُعد الاجتماعي في حياة الإنسان. وقد كان فهم (آدم سميث -Adam Smith)[1] من قبل صورة من صور التعبير عن هذه القضيَّة أكثر وضوحًا، عندما ذهب إلى أن رفاهية الإنسان لن تتحقَّق إلا في ظلّ إشباع كلّ فرد غايته التي يسعى إليها بناء على مصلحته الشخصيَّة دون اعتداد بأي سلطة، أيًا كان نوعها[2]، في حين عرّفها (لويس دومون -Louis Dumont) بأنَّها جعل الفرد صاحب القِيمة العليا لا المجتمع[3].

ومن ثَمَّ نفهم أنَّ الفردانيَّة الحديثة هي التي تصنع الإنسان المنفصل؛ ذلك أنَّها بتمركزها حول الذات، وتقديم المصلحة الفرديَّة على مصلحة المجتمع، وجعل الحُرِّيَّات الفرديَّة تتغوَّل على حساب الجماعة فتصنع إنسانًا منفصلاً عن عالمه؛ لأنَّه صار يشبع رغباته ومتطلّباته الفرديَّة حتى ولو تعارضت مع القِيم المجتمعيَّة، والقوانين المنظّمة، والعقيدة الدينيَّة التي -حسب أحد مفكِّري الغرب- سلطة استثنائيَّة خارجيَّة تعوق عن بلوغ السعادة[4]، فمع من يتَّصل؟! وإلى من يلوذ، وقد فعل ما فعل؟!

١ - الفردانيَّة والأسرة:

تتأسَّس الأسرة على الترابط والتعاضد والتعاون؛ حيث إنَّها تعد الرابطة الأُولى التي تربط الإنسان بالكيان، كما أنَّها تمثِّل خطّ الدفاع الأول له، وعليه فقد حثَّت الأديان على دور الأسرة

١ - فيلسوف أسكتلندي (١٧٢٣- ١٧٩٠م) مؤسّس علم الاقتصاد الكلاسيكي.
٢ - انظر: آدم سميث: ثروة الأمم، ص٢٤- ٢٥.
٣ - انظر: لويس دومون: مقالات في الفردانية: منظور أنثروبولوجي للأيدلوجيا الحديثة، ص٤١.
٤ - انظر: برتراند رسل: ما الذي أومن به.. مقالات في الحرية والدين والعقلانية، ص١٣٢.

خاصَّــة الأب والأم، وترسـيخه في العقول والقلوب في آن. وهــذا يقودونا إلى أنَّ مفهوم الأسرة يتعارض تمامًا مع مفهوم الفردانيَّــة؛ لأنَّك تتحدَّث عن كيان يجمع الأسرة ويقودها إلى الاتحاد والتواصل، وآخر يفرّق ويقودها إلى التشرذم والتشظّي.

وإذا كانت الفردانيَّة تعني السعي إلى تحقيق المنفعة الفرديَّة، فإنَّ هذا يتنافى مع قِيم الأسرة التي تتأسَّس على معاني الإيثار من أجل الكيان الأسري. فقد صار للفرد الحقّ في الاستقلاليَّة والتحرُّر والانفصال عن الأسرة بحكم القوانين الغربيَّة التي تزيد من الهُوَّة بينه وبينها، بدعوى الحُريَّة والحقوقيَّة، حتى صار الأمر مقنَّنًا ومقعَّدًا عبر مجموعة من القوانين التي ترسِّــخ لها. هذه القوانين التي جعلت للفتاة الحقّ في الاستقلال عن الأسرة في سنّ السادسة عشر، وإقامة علاقــات غير شرعيَّة مع فتيــان أو فتيات في إطار القانون الغربي، ما ســاهم في تغوّل مفهوم الفردانيَّة، والغريب في الأمر أنَّ من يظهر مخالفة أو اعتراضًا على هذا الأمر يعدّ مخالفًا للقانون ويجــب عقابه، في غيــاب واضح للمنطق، وفي دلالة عــلى أسر العقل ووضعه في الأغلال. وهــذا يفسِّر لنا نظرة بعضهم إلى الفردانيَّة على أنَّها نظرة الفرد لنفســه عــلى أنَّه الغاية النهائيَّة، وأنَّه صاحب التصرُّف في نفســه وأفعاله[1] دون أيّ اعتبار لسلطة الأسرة أو الجماعة أو الدين أو غيرهما.

وهذا يعني أنَّ اعتبارات الجماعة بدءًا من الأسرة لا مجال له في ظلّ الفردانيَّة، فالمحور الرئيس رغبات الفرد وميوله، ولو على حساب قِيم الأسرة ومبادئها وتقاليدها، وهذا يفسِّر التفكّك الأسري الذي شاع في المجتمع الغربي، خاصَّة في ما يتعلَّق بالاستقلاليَّة المغالية والتحرُّريَّة التي تفكَّكت بسببها عرى الأسرة، ومن ثَمَّ المجتمع.

ومن ثَمَّ فإنَّ هذا يمثِّل انقطاعًا عن الأسرة وانفصالاً عميقًا لها، وتلك هي البيئة الحاضنة التي تنتج لنا الإنســان المنفصل الذي ســيكون أشــدّ وبالاً على أسرته ومجتمعه ودينه وعالمه؛ لأنَّنا نتحدَّث عن إنسان نَهِم في إشــباع رغباته الماديَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة دون أي سلطة مانعة يضعها في الاعتبار.

---

١ - انظر: جيل ليبوفتسكي: عصر الفراغ.. الفردانيَّة المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة، ص٩٨.

٢ - الفردانيَّة والمجتمع

مما لا شكَّ فيه أنَّ المجتمعات تتأسَّس على التعاون والتعاضد والتكافل في ما بينها، حتى إنَّ الفيلسوف (الفارابي) عدَّ التعاون الثمرة الرئيسة لاجتماعاته الكبرى والوسطى والصغرى[1]، في دلالة واضحة على تلك القيمة التي تنبني عليها المجتمعات. ومن ثَمَّ فإنَّه إذا كانت لكلّ مجتمع هُويَّـة فإنَّ العادات والتقاليد وأخصّها التعاون عماد من أعمدتها بجوار الدين، واللغة، والتاريخ المشـترك. لكن المجتمع الذي تسـوده الفردانيَّة يختلف تمام الاختلاف عن المجتمعات التي خلعت عن نفسها ثياب هذا الداء الدفين؛ ذلك أنَّ الفردانيَّة تميل إلى الأنا التي تسعى إلى تغليب مصلحتهـا الفرديَّة على مصلحة المجتمع كلّه، وهنا لا تتلاقى الفردانيَّة والمجتمع، كما أنَّهما لا يتلاقيان في ميل الفردانيَّة فكرًا وتطبيقًا إلى الانعزال عن المجتمع.

ولا مانع من أن يقوم الإنسان بالبحث عن مصلحته ورغباته وتحقيق ذاته، لكن ينبغي أن يكون في إطـار الالتزام بالقيود الاجتماعيَّة والدينيَّة، والتـي يعني تجاوزها التعدّي على أمن المجتمع وتواصل أبنائه؛ لأنَّ الغاية التي تسـعى إليها الفردانيَّة تتعارض مع القِيم المجتمعيَّة التي تُؤسَّس على التعاضد والتكاتف ومصلحة الجميع، لا التفرّق والتشرذم والبحث عن مصلحة الفرد فقط.

٣ - الفردانيَّة والدين والإله

إنَّ الفردانيَّة الغربيَّة الحديثة تعني في التحليل الأخير أنَّه لا مكان للدين؛ لأنَّه من المستحيل أن يأمر الدين الإنسـان بالبحث عن تحقيق رغباته وشهواته دون ضابط أو قيد، فسعي الفردانيَّة إلى جلب المنفعة للإنسـان دون أي منهما يعني أنَّنا أمام اتجـاه لا يقيم للدين وزنًا؛ لأنَّ الدين ينهى عن أن يكون الإنسان كالبهائم لا يسعى إلا إلى البحث عن شهواته البهيميَّة، ومن ثَمَّ كان التكريم الإلهي لـه: ﴿**ولقد كرَّمنا بنى آدم**﴾ [الإسراء: ٧٠]، ذلك التكريـم الذي لن تتحقَّق غاياته إلا بالوسطيَّة الإيمانيَّة التي توازن بين متطلّبات الروح ومتطلّبات الجسد؛ لأنَّ تغوّل أي منهما ليس من الإسلام في شيء.

---

١ - انظر الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، ص٢٩٠

كما أنَّ الفردانيَّة الغربيَّة الحديثة تقوم -كما قلنا سابقًا- على الفلسفة الماديَّة، وهي تلك الفلسفة التي أنتجت لنا الإلحاد الجديد، وهي التي أنتجت لنا أيضًا هذه الفردانيَّة، وإذا كان الإلحاد الجديد لا يؤمن بوجود الإله ولا يقيم وزنًا للدين، فإنَّ الفردانيَّة الغربيَّة تسير على النسق نفسه؛ لأنَّ تحقيق الرغبات والسعي الحثيث إليها دون مراعاة للضوابط الدينيَّة يعني أنَّها لا تقيم وزنًا له، ويُفهم بالتبعيَّة أنَّها لا تهتمّ بالإله الذي أنزل هذا الدين. إنَّ اتجاه الفردانيَّة لا يؤمن إلا بتلبية الاحتياجات الفرديَّة الماديَّة في الغالب، فهو لا يؤمن إلا بما هو مادِّي، أمَّا ما وراء المادَّة من عالم الغيب والروحانيَّة فلا مكان له في هذه الفردانيَّة.

وبالنظر إلى تعريفات مثل: الفردانيَّة والفرد المفرد، فهي تحمل المعنى ذاته تقريبًا في الإطار الرافض لقيود الدين والإله؛ فالموسوعة الفلسفيَّة تشير إلى المعنى المراد من المصطلح يركِّز على الاستقلاليَّة وعدم الخضوع لأي سلطة[1] سواء أكانت دينيَّة أم اجتماعيَّة أم غيرهما، وهذه دعوة إلى حُريَّة مطلقة لا تضع اعتبارًا للدين والله تعالى، كما أنَّ الاستقلال عن المجتمع والدولة يعني في التحليل الأخير رفض المعتقد الذي يؤمن به المجتمع والذي تنصّ عليه قوانين الدولة، ومن ثَمَّ رفض ما يضعانه من شروط ومحدِّدات.

وإذا كانت الفردانيَّة تعني أنَّ «الفرد أساس كلّ حقيقة وجوديَّة»[2]، وإذا كان الإنسان عندها أساس كلّ حقيقة، فإنَّه لا حقيقة غيرها، ومن ثَمَّ يتوارى الدين بوصفه حقيقة لتحلّ محله الفردانيَّة الحديثة، وهذا يفسِّر لنا أنَّ الفردانيَّة تقوم على الوجودي والمادّي، ومن ثَمَّ فإنَّ كلمات: الله، والدين، والإيمان ليست في قاموسها، ولا قاموس الإنسان المنفصل بالتبعيَّة، وفي أضيق الحدود يجري تهميشها لصالح كلّ ما هو نفعي برجماتي؛ ذلك أنَّ الوجوديَّة والبرجماتيَّة والماديَّة مغذِّيات ومصادر للفردانيَّة الحديثة لا تلتقي بالإسلام، ولن تلتقي به يومًا.

ومن ثَمَّ فإنَّ الفردانيَّة الغربيَّة تختلف اختلافًا جذريًّا عن الفردانيَّة العربيَّة إن وجدت، فالأُولى تتمركز حول الذات من أجل الانفصال عن الدين والإله، في حين تتمركز الثانية حول الذات،

١ - روزنتال ويودين وآخرون، الموسوعة الفلسفية، ص٣٢٨- ٣٢٩.
٢ - جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج٢، ص١٤١.

ولكن من أجل تطهيرها من أدران الدنيا وشهواتها وملذّاتها[1]، فالأُولى تحاول أن تصل بالإنسان إلى الابتعـاد عن الله، في حـين تقود الثانية إلى الاقـتراب منه، من خلال الانقطـاع عن الدنيا، وهجرها، كما يظهر في مجالي الزهد والتصوّف.

ثانيًا: المغذيات الفكريَّة والفلسفيَّة للفردانيَّة.

لم تكـن الفردانيَّة وليدة اللحظة، أو أنَّهـا ظهرت هكذا فجأة بل كانت لهـا مغذِّياتها الفكريَّة ومصادرها الفلسفيَّة التي مهَّدت لها وقادت إليها، ونحن نعلم أنَّ الفكر السفسطائي الذي جعل اللذَّة الفرديَّة هي معيار الخير، فما يجلب للإنسـان اللذَّة فهو خير، وما يمنع عنه اللذَّة يعدّ شرًّا، لـذا عدّوا الفرد هو مقياس كلّ شيء، وكذلك الفردانيَّـة الحديثة هي مصدر الحكم على الفعل. ولا نظن هذه الفردانيَّة إلا عودة سـوء لهذه السفسـطائيَّة، ولكن بزي جديد، وإن كان المضمون في الغالب واحدًا.

ثمّ كان لتطوّر الفكر الغربي دور رئيس في نموّ النزعة الفردانيَّة في المجتمع الغربي، «بدءًا من عصر النهضة، مـرورًا بالثورة الصناعيَّة، وصولًا إلى عصر النيوليبراليَّـة. هذه التحوّلات الثقافيَّة والاقتصاديَّـة عمّقت من قِيمة الفردانيَّـة، لكنَّها في الوقت ذاته أفـرزت تحدِّيات جديدة؛ حيث بدأت المجتمعات تشـهد تراجعًا في التماسك الاجتماعي وزيادة في الشعور بالعزلة والوحدة. هـذا الانعـزال، المدعوم بثقافة الاسـتهلاك والنجاح الفـردي، أدّى إلى تفاقم مشـاكل الصحَّة النفسيَّة والبيئيَّة، ما دفع عددًا من المفكِّرين والباحثين إلى إعادة النظر في تأثيرات الفردانيَّة على المجتمعات»[2].

ولقد كانت السمة الرئيسة منذ عصر النهضة وعصر الثورة الصناعيَّة، ثمَّ عصر النيوليبراليَّة هي الماديَّة الصرفة، وهذه الماديَّة غذَّتها فلسفات هذه العصور، حتى بات الإنسان الغربي لا يبحث في الغالب إلا عما يشبع لديه هذه الماديَّة، ولو كانت على حساب الآخر، وهذا هو لبّ الفردانيَّة الحديثة التي قادت الإنسـان المنفصل إلى الانفصال عن الذات الجمعيَّة والانكفاء على الذات

١ - انظر: حسن الكحلاوي، الفردانيَّة في الفكر الفلسفي المعاصر، ص٩٩.
٢ - محمد علي عز الدين: الفردانية: جذورها، آثارها الكارثية والبديل الإسلامي.

الفرديَّة ضاربًا عرض الحائط بكلّ الروابط والقِيم الاجتماعيَّة التي يقوم عليها أي مجتمع مستقيم اجتماعيًا بل إنَّه "يُخضع المصالح الاجتماعيَّة للمصلحة الشخصيَّة"[١].

ويرى بعضهم أنَّ القرن التاسع عشر -قرن الصناعة والتطوُّر العلمي- كان له دوره في ظهور الفردانيَّة بشكل واضح في المجتمعات الغربيَّة، وأنَّها انتشرت بدءًا من ألمانيا وإنجلترا التي تعاملت معها من منطلق اقتصادي، ثمَّ أمريكا التي اعتمدت عليها في القِيم الاجتماعيَّة والسياسيَّة الجديدة مثل: الديمقراطيَّة والرأسماليَّة[٢]. فالرأسماليَّة أكَّدت في كلّ تفاصيلها على أنَّ منفعة الإنسان ومصلحته هي المحور الرئيس الذي تدور حوله[٣].

وإذا كانت الفلسفة الماديَّة قد قادت إلى العقل الأداتي الغربي بكلِّ أدرانه، فإنَّها كذلك قادت إلى الفردانيَّة الغربيَّة الحديثة، ولا نشكُّ في أنَّ العقل الأداتي والفردانيَّة الحديثة وجهان لعملة واحدة هي الفلسفة الماديَّة النفعيَّة. فالعقل الأداتي هو الذي يسعى إلى تحقيق ما يسعى إليه دون أي اعتبارات دينيَّة أو اجتماعيَّة أو غيرها، والفردانيَّة الحديثة هي فلسفة السعي أو منهج السعي الذي يقود إلى هذا. ولا ننسى، كما يذهب (عبد الوهاب المسيري)[٤]، إلى أنَّ إنكار وجود الله -تعالى- في الفكر الغربي ناتج عن هذه الفلسفة[٥].

ولا يمكن أن نغفل دور الفلسفة الوجوديَّة في تغذية روافد الفردانيَّة الحديثة؛ حيث جعلت الوجوديَّة الإنسان موضوعًا لها، كما أنَّ لكلِّ إنسان أن يختار غايته أو هدفه من الحياة، فليس هناك غاية واحدة يجب على الإنسان السعي إليها في الفكر الوجودي[٦]، وإنمَّا تعطي الإنسان الحُريَّة في أن يعيش الحياة كما يحلو له دون قيود دينيَّة أو اجتماعيَّة أو غيرها، وليس من حقّ غيره أن يحدِّد له اتجاهه[٧].

---

1 - Ellen Meiksins Wood: Mind and Politics: An Approach to the Meaning of Liberal and Socialist Individualism, P6.

٢ - انظر: جلال عبد الحسن، مفهوم الفردانية في الإسلام.. من الفوضى إلى التقنين.

٣ - انظر: آدم سميث: ثروة الأمم، ص٢٤- ٢٥.

٤ - مفكر مصري (١٩٣٨- ٢٠٠٨م)، مؤلِّف موسوعة اليهود واليهوديَّة والصهيونيَّة.

٥ - انظر: عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص٣٩- ٤٠.

٦ - انظر: عباس محمود العقاد، أفيون الشعوب، ص ٨٦.

7 - John Macquarie: Existentialism, P14.

إنَّ الفردانيَّة خرجت من تحت عباءة الوجوديَّة في تقديس الحُريَّة الشخصيَّة في الفكر والسلوك. فالوجوديَّة تهتمّ بالذات الفرديَّة (الإنسان)، ولا تهتمّ بالذات الجمعيَّة (المجتمع) كاهتمامها بالإنسان[١]، ومن ثَمَّ كانت دعوتها إلى الحُريَّة المطلقة التي يفعل الإنسان من خلالها ما بدا له دون رقيب أو حسيب، وهذا يفسِّر لنا نهمها في تحقيق متطلّبات الذات[٢]، وهذه هي الفردانيَّة بكلِّ حذافيرها؛ ذلك أنَّهما يقدِّسان الذات، ويطلقان لها الحُريَّة المطلقة دون مراعاة لسلطة من أي نوع. كما أنَّ الوجوديَّة تقوم على عالمها الخاص، فكلّ زعيم من زعمائها كان يفحص وجوده الخاص، ومن ثَمَّ كانت تجربة ذاتيَّة بحتة، هذه الذاتيَّة هي التي نراها في الفردانيَّة الغربيَّة.

وبناء عليه نفهم لماذا كان تركيز الوجوديَّة على الذات الفرديَّة؛ حيث جعلتها مركز الكون، واقتلعتها من جذورها الإيمانيَّة والاجتماعيَّة[٣]، متناسية الأبعاد الروحيَّة والعاطفيَّة الاجتماعيَّة.

فالوجوديَّة التي غذَّت الفردانيَّة في إعلاء الذات، هي ذاتها التي غذَّتها في عدم الاكتراث لدين أو لإله. فالوجوديَّة تنكر وجود الله تعالى[٤]، ولا تؤمن بأي سلطة خارجيَّة وأخصّها الدين[٥]، وهذا ما أورث الفردانيَّة المعاصرة عدم الاعتداد بسلطة الدين ومبادئه وتعاليمه، فراحت كالحيوان المفترس الذي يفترس كلَّ شيء أمامه من أجل ذاته فقط.

ولا يمكن أن نغفل دور البراجماتيَّة في تغذية الفردانيَّة الحديثة؛ ذلك أنَّها تسعى إلى جلب المنفعة للإنسان، فهي مذهب نفعي يقيس خيريَّة الأفعال بما تجلبه من منفعة. وهي مذهب فلسفي نشأ في أمريكا عام ١٨٧٠م[٦]. ونتيجة لسعيها الحثيث نحو جلب المنفعة سُمِّيت بالمذهب النفعي أو المذهب العملي؛ لأنَّها تقيس الفعل بنتائجه[٧]. فالتصوُّر النفعي القائم على التجربة كان مغذِّيًا رئيسًا من ضمن المغذِّيات في سعي الفردانيَّة إلى الدعوة إلى تحقيق الإنسان

---

١ - انظر: عبد الرحمن بدوي، دراسات في الفلسفة الوجوديَّة، ص ٨.
٢ - انظر: محمد الفيومي: الوجوديَّة فلسفة الوهم الإنساني، ص٩، ٢٥، ١٢٠
٣ - انظر: مصطفى غلوش، الوجوديَّة في الميزان، ص١٧.
4 - Hayek, F.A. The Road to Serfdom. Pp, 38.
٥ - انظر: زكريا إبراهيم: الفلسفة الوجوديَّة، ص١٣.
٦ - انظر: مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص٧٧.
٧ - انظر: يمنى طريف الخولي، تيَّارات الفلسفة في القرن العشرين، فصل٣.

رغباته دون قيود من دين أو مجتمع أو غيرهما.

لقد كان سعي البراجماتيَّة سعي تجريبي، بمعنى أنَّها كانت تمجِّد الأفكار التي تؤدِّيها التجربة العمليَّـة، وتؤكِّد صحتها ومنفعتها. فكلّ فكـرة في البراجماتيَّة لا بدَّ أن تخضع للتجربة العمليَّة، وهذا في التحليل الأخير مرتكز رئيس في الفردانيَّة التي راحت تلبِّي احتياجاتها، وتطبُّقها تطبيقًا عمليًّا على أرض الواقع، ولمَّا كانت اللذَّة الفرديَّة تحقِّق رغباتها صارت هي الخير بالنسبة إليها، ومن ثَمَّ فإنَّ الفردانيَّة في جانبها الخُلُقي نمت وترعرعت في حضن المذهب النفعي البراجماتي، ما يشير إلى أنَّ البراجماتيَّة ناقضت الدين في موضوع الطبيعة الإنسانيَّة، والتي لم تمنح الإنسان ما منحه المنهج الإسلامي له من تكامل ووسطيَّة وازدواجيَّة[1]. وهذا ما آلت إليه الفردانيَّة أيضًا.

ثالثًا: الآثار الناتجة عن الفردانيَّة في المجتمعات الغربيَّة.

لا شكَّ في أنَّ هناك كثيراً من الآثار السلبيَّة الناتجة عن الفردانيَّة المستحكمة في المجتمعات الغربيَّـة، وفي غيرها مـن المجتمعات التي جعلتها مشربها وأسـلوب حياتها، ويمكن القول إنَّ هذه الآثار تمسّ الأسرة والمجتمع والعالم والعقائد الإيمانيَّة. ويمكن أن نحصر الآثار السـلبيَّة للفردانيَّة في أربعة محاور:

١ - آثار الفردانيَّة السلبيَّة في الإنسان:

أ - الانعزاليَّة والوحدة:

لا شـكَّ في أنَّ الفردانيَّة تقود إلى الشـعور بالانعزال والوحدة؛ وذلك أنَّه كلّما أمعن الإنسان في تحقيق رغباته الفرديَّة دون وازع من أي سلطة، فإنَّه يبعد شيئًا فشيئًا عن ذاته أوَّلًا وعن الذات الجمعيَّة ثانيًـا، فمهما اتَّخذ من تدابير فإنَّه كائن اجتماعي، ومن ثَـمَّ فإنَّه فردانيته تؤلمه من هذا الجانب الغريزي. ولا شـكَّ في أنَّ الانعزاليَّة والوحدة نتيجـة طبيعيَّة للتمركز حول الذات الذي تمارسـه الفردانيَّة الغربيَّة؛ حيث «ميل الفرد لتحرير نفسـه من القواعـد والقِيم النابعة من الوعي

١ - انظر: محمد خضر شبير: دراسة ناقدة للفلسفة البراجماتيَّة في ضوء المعايير الإسلاميَّة، ص٢٣.

الجمعي، بحيث يعطي الأولويَّة لمصالحه الخاصَّة واختياراته على الجماعة أو المجتمع»[١].

ب- الشعور باللا جدوى:

وإذا انعزل الإنسان وصار وحيدًا، فإنَّه حتمًا سيشعر باللا جدوى من وجوده، لكن هذا الشعور لن يتسرَّب إليه جملة واحدة، وإنَّما شيئًا فشيئًا، لكن ربما بعد فوات الأوان، وإذا شعر الإنسان باللا جدوى من حياته، فإنَّها ستكون هيِّنة عليه، ومن ثَمَّ فقد يلجأ إلى الانتحار أو الجنون؛ لأنَّ فردانيَّته تحكَّمت فيه، وجعلته ينحو منحى ماديًّا صرفًا، فتموت الروحانيَّة، فيتسربل بالشعور بضياع الكينونة، ومن ثَمَّ اللا جدوى، وهذا ما دعا بعض الباحثين إلى التأكيد على أنَّ معيار اللذَّة الذي تطبُّقه الفردانيَّة الغربيَّة ليس لديه القدرة على جعل الناس يستمرُّون في الحياة[٢].

ج-الأنا والنرجسيَّة:

لكن إذا كان الشعور باللا جدوى قد يحدث في مراحل متأخِّرة من تحكّم الفردانيَّة في الشخص، فإنَّ ما يتحكَّم فيه ويمسك بتلابيبه هو الأنا المتعالية والنرجسيَّة؛ حيث إنَّه بتركيز الفرد على تحقيق رغباته ومصالحه، قد تشعر الأنا بالفوقيَّة والتعالي على الآخر، فيظنّ أنَّه أفضل من أفراد المجتمع الذي يعيش فيه، وهذا من شأنه أن يصنع فجوة نفسيَّة يعاني منها الفرد قبل المجتمع. ومن ثَمَّ فإنَّ الإنسان الفرداني المنفصل نرجسي إلى أبعد حدّ؛ «لأنه لا يقدِّر إلا ذاته، ولا يفضِّل أيَّ شيء على ذاته؛ لأنَّه باختصار ينطلق من ذاته وينتهي إليها»[٣]. وفي ذلك يقول (ماكس شتيرنر -Max Stirner)[٤]: «ابحثوا عن ذواتكم، كونوا أنانيين»[٥]، ويقول: «مِن الأَولى أن أكون أنا ذاتي وأناني»[٦]، ويقول: «أنا كلُّ شيء بالنسبة إلى ذاتي، أنا الأوحد»[٧]، كما يقول:

---

١ - محمد يوسف القضاة: تأثير الفردانيَّة الغربيَّة على الأسرة المعاصرة، ص ١٦

٢ - انظر: باتريك بوكانان: موت الغرب.. أثر شيخوخة السكان ومزتهم وغزوات المهاجرين على الغرب، ص٢٧.

٣ - ماكس شتيرنر: الأوحد وملكيته، ص٢٢٦

٤ - فسلسوف ألماني (١٨٠٦- ١٨٥٦)، من زعماء الفلسفة الوجوديَّة والعدميَّة.

٥ - ماكس شتيرنر: الأوحد وملكيّته، ص٢٩٣

٦ - ماكس شتيرنر: الأوحد وملكيّته، ص٢٩٣.

٧ - ماكس شتيرنر: الأوحد وملكيّته، ص٢٨.

«أنا وحدي قضيَّتي، أنا ذاتي قضيَّتي»، ويقول: «لا شيء بالنسبة إليّ يعلو عليّ»[1].

د-الذات مصدر المعرفة:

لا شكَّ في أنَّ الفردانيَّة بهذا تجعل من الإنسان مصدر المعرفة لذاته بناء على تجاربه وخبراته وسلوكيَّاته، بل إنَّها جعلت من الذات موضوعًا للمعرفة أيضًا، فـ «تحفِّز الفرد على النظر داخل نفسه، وفهم تجاربه وسلوكيَّاته ومشاعره بشكل أعمق»[2]. وهذا من شأنه أن يجعله يتَّخذ مواقف بناء على معرفة ذاتيَّة داخليَّة، دون النظر إلى المعرفة الخارجيَّة، أو بمعنى آخر يلغي أي معرفة خارجيَّة تمنع من الوصول إلى رغباته.

هـ-الذات مصدر المعيار الخُلُقي:

وإذا كانت الذات هي مصدر المعرفة وموضوعها، فهذا يعني أنَّها المعيار الخُلُقي الذي تحكم من خلاله بين الخير والشر، فلا اعتبار لمعيار خارجي كالدين والقانون والعرف الاجتماعي وغيرها، بل إنَّه لا اعتبار لبعض المعايير الداخليَّة كالضمير مثلاً، إنَّما الاعتبار الأوَّل والأخير للذات المجرِّبة التي اختبرت اللذَّة واطمأنَّت لها وجعلتها سبيلها الذي لا تحيد عنه، في عود غير حميد للسفسطائيَّة القديمة التي جعلت من الذات مقياس كلّ شيء، وعليها فما أسعدها وحقَّق لذَّتها فهو الخير، وما أتعسها وأعاقها عن تلبية نداء الشهوة فهو الشرّ[3].

و-فقدان الإنسان للروحانيَّة:

لا شكَّ في أنَّ انغماس الإنسان في الفردانيَّة، وتحقيق كلّ ما هو مادي إشباعًا لرغباته يقود حتمًا إلى فقدان الإنسان للروحانيَّة المطلوبة في حياته والتي تشعره بالطمأنينة النفسيَّة، والتي تجعله قادرًا على التغلّب على الإشكاليَّات النفسيَّة التي تواجهه، وأهمّها الاكتئاب والانتحار وغيرهما؛ لأنَّ الإنسان في هذه الحال يكون مفتقدًا للاتزان السيكولوجي، الذي يحقّقه له الاتجاه الروحاني الذي يمثّله الدين بتعاليمه ومعتقداته. «وبهذا يمكن تفسير

---

١ - ماكس شتيرنر: الأوحد وملكيّته، ص٢٩.

٢ - محمد يوسف القضاة: تأثير الفردانية الغربية على الأسرة المعاصرة، دراسة في ضوء الفكر الإسلامي، ص١٨.

3 - Ellen Meiksins Wood: Mind and Politics: An Approach to the Meaning of Liberal and Socialist Individualism. P6-7

الإقبال المتعاظم على مراكز العلاج النفسي في الغرب، فإنَّ الوجه المظلم لوفرة الدراسات النفسيَّة هو شـيوع هذه الأمراض وتفشِّي الأوبئة النفسيَّة، كالاكتئاب والقلق والاضطرابات الأخرى"[1].

٢- آثار الفردانيَّة السلبيَّة على الأسرة:

أ-تفكُّك الروابط الأسريَّة:

من الآثار السلبيَّة للفردانيَّة الواقعة على الأسرة تفكُّك الروابط الأسريَّة في المجتمعات الغربيَّة؛ ذلك أنَّ حُريَّة التصرّف المطلقة التي تكسـبها الفردانيَّة تجعل كلّ فرد من أفراد الأسرة يبحث عن رغباتـه دون النظر لأُمِّه أو أبيه أو إخوته، وهنا تفقد الروابط الأسريَّة قوَّتها، كما أنَّ حريَّة الفتاة أو الفتى بعد السادسة عشر دون اعتراض من الوالدين بحكم القانون يفقد الأسرة قوَّتها أيضًا؛ لأنَّ لهما أن يفعلا ما شاءا من الانفصال عن الأسرة، واتخاذ مسكن جديد والانعزال التامّ عنهما.

ب- زيادة معدَّلات الطلاق:

من الآثار السلبيَّة للفردانيَّة الغربيَّة زيادة نسبة معدَّلات الطلاق في مجتمعاتها، فالدول الغربيَّة والولايات المتحدة الأمريكيَّة تشـهد نسـب معـدَّلات مرتفعة جدًّا في الطـلاق، وهذا ما تؤكّده الإحصائيَّـات الصادرة في ٢٠٢٥م؛ نتيجة تغلب الفردانيَّـة الحديثة على هذه المجتمعات التي تئنّ من وقعها يومًا بعد يوم، هذه الإحصائيات تشـير إلى أنَّ أسـبانيا وروسـيا وأوكرانيا وإيطاليا وفرنسا ولوكسـنبورج والبرتغال وكندا وكوريا الجنوبيَّة والولايات المتحدة الأمريكيَّة هي الأكثر في معدَّلات الطلاق في العالم[2]، والمتأمّل في هذه الإحصائيَّة التي تتصدَّرها هذه الدول العشر يجد أنَّها وإن كانت من الدول المتقدِّمة صناعيًّا وتكنولوجيًّا على مسـتوى العالم، فإنَّها من أكثر الدول تفكُّكًا من الناحية الأسريَّة؛ نتيجة التطبيق المبالغ للفردانيَّة الحديثة التي تسعى إلى كسب كلّ شيء دون مراعاة لأي شيء.

---

١ - محمد يوسف القضاة: تأثير الفردانيَّة الغربيَّة على الأسرة المعاصرة، دراسة في ضوء الفكر الإسلامي، ص١٨.

٢ - انظر: ألكسندر لوسون: معدلات الطلاق العالمية ٢٠٢٥: تحليل شامل.

ج- تكوين أسر غير شرعيَّة:

لا شكَّ في أنَّ من سلبيَّات الفردانيَّة أنَّها تقود إلى تكوين أسر غير شرعيَّة، تسهم في إنتاج أبناء مجهولي الهويَّة، فنتيجة تلبية الرغبات الفرديَّة دون قيد يميل الإنسان الغربي إلى إقامة علاقة جنسيَّة مع فتاة أو عدَّة فتيات تحت ما يُسمَّى بـ (Girl Friend)، ثمّ يهجرها عاجلاً أم آجلاً، ومن ثَمَّ ينتج عن هذه العلاقة التي يحميها القانون الغربي للأسف ولادة أبناء قد لا يعرفون آباءهم، خاصَّة إذا كانت الأُمّ من محبِّي تعدّد الأصدقاء في العلاقة الجنسيَّة. وهذا يعني أنَّه لا وجود لأسرة؛ إذ إنَّ أبسط معاني الأسرة وجود أب وأُمّ، فإذا لم يُعرف الأب من الأساس فكيف يكون إحساس الابن؟! وهل يستطيع التغلّب على مشاعر الضياع وفقدان الانتماء الأسري التي تحاصره من كلّ اتجاه؟!

في إحصائيَّة أُجريت في ٢٠١٨م كشف مكتب الإحصاء الأوروبيّ أنَّ ٤٣٪ من المواليد في الاتّحاد الأوروبي سنة ٢٠١٦ وُلدوا خارج إطار العلاقات الزوجيَّة. وأظهرت البيانات الأخيرة التي نشرها المكتب أنَّ عدد المواليد خارج إطار الزواج ارتفع بنسبة ١٥٪ مقارنة بعام ٢٠٠٠م[١].

وعن الدول التي تصدَّرت قائمة الأطفال المولودين خارج إطار الزواج، أوضحت البيانات أنَّ نسبتهم في فرنسا بلغت ٦٠٪، وبلغاريا وسلوفينيا ٥٩٪، وإستونيا ٥٦٪، والسويد ٥٥٪، والدانمارك ٥٤٪، والبرتغال ٥٣٪، في حين بلغت النسبة في هولندا ٥٠٪.. في المقابل انخفضت نسبة الأطفال المولودين خارج إطار الزواج في كلّ من اليونان وكرواتيا مقارنة بالمتوسِّط الأوروبيّ؛ حيث لم تتجاوز ٢٠٪.

ولا شكَّ في أنَّ هذه النسب الإحصائيَّة هي نتاج طبيعي للفردانيَّة الغربيَّة التي جعلت الإنسان الغربي يبحث عن نهمه وشبقه الجنسي دون مراعاة لسلطة دينيَّة بالخصوص، الأمر الذي يقود إلى تكوين كيان أسري ينقصه الدفء والأبوَّة الحقيقيَّة.

د-عقوقيَّة العلاقة بين الآباء والأبناء:

ويترتَّب على تكوين أُسر غير شرعيَّة عقوق الأبناء للآباء؛ لأنَّ الطفل عندما ينشأ بين أحضان أمِّه

١ - دراسة بعنوان: ٤٣٪ من أطفال أوروبا ولدوا خارج إطار الزواج.

فقــط دون أب، نتيجة وجوده في ظروف غير ملائمة البتَّة، يفقد الانتماء للأسرة، حتى مع معرفة والده باعــتراف الأب طواعية أو عن طريق فحص الحمض النــووي (DNA)، وهذا ما يورث الابن عقوق الوالدين؛ لأنَّ الآباء ذاتهم هم من بدأوا بالعقوق، فيكون الجزاء من جنس العمل، بدليل نسب كبيري السن المودعين في دار المسنِّين في أوروبّا؛ حيث تمثّل المعدل الأكبر، فحسب بعض الإحصائيَّات، نجد أنَّ نســبة سكان دور الرعاية من ســكان إنجلترا وويلز مثلاً في عام ٢٠١١ كانت ٤,٣٪ في عدد المقيمين في دور الرعاية الذين تبلغ أعمارهم ٦٥ عامًا فما فوق، بينما بلغت في عام ٢٠٢١م ٢,٥٪ . بينما كان أكبر انخفاض في نســبة كبار الســن المقيمين في دور الرعاية بين الأشــخاص الذين تبلغ أعمارهم ٨٥ عامًا فما فوق. حيث انخفض من ١٣,٧٪ في عام ٢٠١١ إلى ١٠,٨٪ في عام ٢٠٢١ [١].

٣- آثار الفردانيَّة السلبيَّة على المجتمع:

أ-انفصال الروابط والصلات الاجتماعيَّة:

تقود الفردانيَّة إلى انفصام عرى الروابط الاجتماعيَّة؛ حيث يؤدِّي انشــغال الأفراد إلى إشــباع أهدافهــم الشــخصيَّة دون أدنى مراعــاة للعلاقات الاجتماعيَّــة. «هذا التفكّك يــؤدِّي إلى تزايد حالات الطلاق وتفكّك الأسرة، ما يؤثِّر سلبًا على تماسك المجتمع. وقد بيَّنت دراسة من جامعة كاليفورنيــا (٢٠١٨) أنَّ تزايد النزعة الفرديَّة أدَّى إلى ارتفاع معدَّلات الطلاق وتراجع التماســك الأسري. تاريخيًّا، يمكن مقارنة ذلك مع المجتمعات الإســلاميَّة في القرون الوسطى التي كانت تعتمد على الأسرة الكبيرة الممتدَّة التي كانت توفِّر دعمًا اجتماعيًّا قويًّا لأفرادها»[٢].

ليســت هذه هي الإشــكاليَّة الوحيدة، بل الأمر يتعدَّى ذلك، ذلك أنَّ الحريَّة المطلقة التي تقود إليها الفردانيَّة معناها أن يكون "للفرد الحريَّة الكاملة في اتخاذ القرارات المتعلقة بحياته الشخصيَّة، كتغيير جنســه من ذكر لأنثى، أو اتِّخاذ قرار الانتحار، أو الإجهاض، أو الممارســة الجنسيَّة خارج إطار الزواج، فهو حُرّ في اختياره، ولا يلزمه الرضوخ لضغوط اجتماعيَّة أو دينيَّة أو سياسيَّة"[٣].

---

١ - انظر: www.ons.gov.uk

٢ - محمد علي عز الدين: الفردانيَّة: جذورها، آثارها الكارثية والبديل الإسلامي.

٣ - محمد يوسف القضاة: تأثير الفردانية الغربية على الأسرة المعاصرة، دراسة في ضوء الفكر الإسلامي، ص١٦.

ب- تعرُّض ديمغرافيَّة السكَّان للخطر:

من الإشكاليَّات التي تنتج عن الفردانيَّة الحديثة في المجتمعات الغربيَّة، وزيادة عدد الوفيات عـن عدد المواليد في كثير من الدول الغربيَّة والولايات المتحدة الأمريكيَّة، ما يعرِّض ديمغرافيَّة السـكَّان للخطر المحدق، وهذا ناتج عن الإعراض عن الزواج، والرغبة في تقليل عدد الأطفال من جانب الوالدين نتيجة تغليب الرغبات والمصالح الشخصيَّة التي تغلغلت في النفوس بإلحاح من وقع الفردانيَّة الحديثة.

وتدليـلاً عـلى ذلك نجد أنَّ فرنسـا -على سـبيل المثال- تشـهد مرحلة دقيقة عـلى الصعيد الديموغرافي؛ إذ تسجِّل للمرَّة الأُولى منذ نهاية الحرب العالميَّة الثانية أضعف توازن طبيعي بين المواليد والوفيات؛ ذلك أنَّ أحدث دراسـة صادرة عن المعهد الوطني للدراسات الديموغرافيَّة وجدت أنَّ الفارق بين عدد المواليد وعدد الوفيات لم يتجاوز في عام ٢٠٢٤ سوى ٠,٢٪ مولود إضافي لكلّ ألف نسمة، وهو مؤشِّر يعكس حالة وهن غير مسبوقة في الديناميَّة السكَّانيَّة للبلاد[١]. وما يقال عن فرنسـا من حيث كثرة عدد الوفيات في مقابـل عدد المواليد، يقال أيضًا عن الدول الغربيَّة بشكل عام، مثل ألمانيا وروسيا وغيرهما.

وهذا نتيجة شـيخوخة السـكَّان التي آلت إلى ما آلت إليه نتيجة الإعـراض عن الزواج مقابل علاقات جنسـيَّة تشعر الفرد بالمتعة واللذَّة التي تقوده إليها الفردانيَّة وتأثيراتها، كذلك نتيجة قلَّة الخصوبة التي نتجت عن كثرة هذه العلاقات غير الشرعيَّة، وممارسـتها بدءًا من السادسـة عشر سنة، وهذا كله حسب معطيات تلك الفردانيَّة وتأثيراتها.

ج- تفشِّي الانتحار في المجتمع:

يعدُّ الانتحار أحد نتاجات الفردانيَّة، فهي تمثِّل سببًا رئيسًا من الأسباب التي تقود إلى الانتحار في المجتمعات الغربيَّة. فقد فقدت بعض الدول الغربيَّة عمليَّة الاسـتقرار الروحي «في السويد وسويسرا وهما من الدول الغنيَّة التي يمتاز شبابها بالثقافة والعلم، ففي سويسرا تبلغ نسبة التعليم ١٠٠٪ تقريبًا، وتعتبر من أعلى عشرة دول دخلاً للفرد في العالم، ويمتاز اقتصادها بالثراء لا سيِّما

١ - انظر: www.ajnet.me

أنَّهـا تعتمد على التكنولوجيا في الصناعة. ولكن على الرغم من ثراء الدولة، وثراء شـعبها يقدم كثير من شبابها على الانتحار»[١].

وهذا «وقد اجتمع بعض الساسـة وعلماء النفس في مدينـة جنيف في عام٢٠٠٧ في مؤتمر لبحث هـذا الموضوع، وجـاء في التقرير: أنَّ معظـم المنتحرين من فئة الشـباب، وهم الذين يقبلـون على جريمة الانتحار، ومعظمهم مرضى بأمراض، أهمّها: الشـذوذ الجنسي، وأمراض الاضطرابات النفسـيَّة، ويعاني معظمهـم من الضياع، وعدم الترابـط الاجتماعي في حياتهم، هذا إلى جانب الخواء النفسي؛ حيث يشعر الشباب بالخواء الروحي، وهو من أهمّ الأشياء التي تكوِّن شـخصيَّة الفرد، ولا سـيَّما أنَّ الشـباب في أوروبا هجروا الدين، وأصبح الشاب المتديِّن في قاموسهم إنسانًا شاذًّا! حتى إنَّ الكنائس أصبحت شبه مهجورة ولا يرتادها إلا بعض العجزة والأسر الفقيرة»[٢].

وهـذا يبيِّن أثر الدين في النفس الإنسـانيَّة المؤمنة، وأثر غيابـه في غيرها من الأنفس الماردة والرافضة لـه. ففي الولايات المتحـدة الأمريكيَّة، معدَّل الانتحار السـنوي هو ١٣,٢٦٪ لكلّ ١٠٠،٠٠٠ شـخص. ويموت الرجال عن طريق الانتحار بمعدل ٣,٥٪ أكثر من النسـاء. وفي المتوسّط، هناك ١٢١ حالة انتحار في اليوم. ويشكِّل الذكور البيض ٧ من كل ١٠ حالات انتحار وفقًا لتقديرات عام ٢٠١٥م. وتمثِّل الأسلحة الناريَّة ما يقرب من ٥٠ في المئة من جميع حالات الانتحار[٣].

وأشارت نيويورك تايمز إلى أن ٤٢٧٧٣ شخصًا ماتوا انتحارًا في الولايات المتحدة الأمريكيَّة في عـام ٢٠١٤م، مقابل ٢٩١٩٩ في عام ١٩٩٩م. وكشـف الباحثون عـن زيادة مقلقة خلال الفترة نفسها، في ما بين الفتيات من ١٠ سنوات حتى ١٤ سنة؛ حيث تضاعفت ثلاث مرَّات نسبة إقبالهن على الانتحار[٤].

---

١ - الانتحار في الغرب ظاهرة تستحق التأمل، ترجمة يوسف وهباني.
٢ - الانتحار في الغرب ظاهرة تستحق التأمل، ترجمة يوسف وهباني.
٣ - طارق السيِّد: ظاهرة الانتحار في الغرب.
٤ - طارق السيد: ظاهرة الانتحار في الغرب.

وبحسب منظَّمة الصحَّة العالميَّة: هناك ما يقرب من ٨٠٠،٠٠٠ شخص يموتون بسبب الانتحار كلّ عام، وهناك عدد من الذين يحاولون الانتحار. وبالتالي، يتأثَّر ملايين عديدة من الناس أو يعانون من الفاجعة الانتحاريَّة كلّ عام. والانتحار هو السبب الرئيس الثاني للوفاة بين الأطفال، الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١٥ و٢٩ عامًا على الصعيد العالمي[١].

د-إشكاليَّة الإدمان:

تعد إشكاليَّة الإدمان من الإشكاليَّات العويصة التي تواجه المجتمعات الفردانيَّة، نتيجة الفراغ الروحي الذي يواجه فئة الشباب خاصَّة، والغريب أنَّ هذه المجتمعات رغم توافر سبل الحياة المريحة لهم ماديًّا وعلميًّا وعلى عدَّة أصعدة، لكنَّها تواجه إشكاليَّات تتعلَّق بالإدمان بما يمثِّله من خطورة جمَّة على عقول الشباب وأرواحهم. إنَّ الإحصائيَّات تشير إلى أنَّ ثلث الأوروبيين جرَّبوا المخدَّرات غير المشروعة؛ حيث تناول ١٥٪ من الشباب نبات الماريجوانا، في حين تناول ٢,٥٪ منهم الكوكايين[٢].

فحسب تقرير مكتب الأمم المتحدة الصادر في يونيو ٢٠٢٥م بلغ عدد مستخدمي المخدَّرات والمؤثِّرات العقليَّة (باستثناء الكحول والتبغ) ٣١٦ مليون شخص عام ٢٠٢٣، أي ما يُعادل ٦٪ من السكَّان الذين تتراوح أعمارهم بين ما ١٥ و٦٤ عامًا، مقارنة بنحو ٢,٥٪ عام ٢٠١٣. ويظلّ القنَّب الأكثر انتشارًا؛ إذ بلغ عدد مستخدميه ٢٤٤ مليونًا، يليه الأفيونيَّات (٦١ مليونًا)، والأمفيتامينات (٣٠,٧ مليونًا)، والكوكايين (٢٥ مليونًا)، والإكستاسي (٢١ مليونًا). ويحذّر التقرير من أنَّ تزايد أعداد الفئات الجديدة من الأشخاص الأكثر هشاشة، ممّن يفرّون من الأزمات والاضطرابات والنزاعات، قد يؤدّي إلى ارتفاع هذه الأرقام مستقبلا[٣].

يتضمَّن التقرير فصولاً خاصَّة عن الاتِّجار بالمخدَّرات والجريمة المنظَّمة؛ وتأثير المخدَّرات والمؤثِّرات العقليَّة على صحَّة مستخدمي المخدَّرات وأسرهم ومجتمعاتهم المحليَّة؛ إلى جانب

١ - موقع منظمة الصحة العالمية الإلكتروني.
٢ - انظر: arabic.euronews.com
٣ - موقع مكتب الأمم المتحدة الإلكتروني.

عرض آثار المخدَّرات على البيئة في أوروبا [1].

يُشير التقرير إلى أنَّ اضطرابات استخدام المخدَّرات تُكبِّد بالفعل الأفراد والمجتمعات والنُّظم الصحيَّة تكاليف باهظة، مُحذّرًا من أنَّ تراجع التعاون متعدِّد الأطراف، وتحوُّل أولويات تخصيص الموارد من شأنه أن يُفاقم من حدّة هذه المشكلة[2].

إنَّ تكلفة الإخفاق في معالجة اضطرابات استخدام المخدرات باهظة؛ إذ أودت هذه الاضطرابات بحياة نحو نصف مليون شخص، وتسبّبت بفقدان ٢٨ مليون سنة من سنوات الحياة الصحيَّة بسبب الإعاقة والوفيات المبكرة خلال عام ٢٠٢١. وتشير التقديرات إلى أنَّ شخصًا واحدًا فقط من بين كل ١٢ شخصًا يعاني من اضطرابات استخدام المخدَّرات والمؤثِّرات العقليَّة تلقّى العلاج في عام ٢٠٢٣. وتبرز أهميَّة السياسات الرشيدة وتوافر خدمات صحيَّة واجتماعيَّة قائمة على الأدلَّة في التخفيف من الأثر الصحّي الناجم عن استخدام المخدَّرات على الأفراد والمجتمعات[3].

فما السبب في كل ذلك؟! أليس سببه الفلسفات الغربيَّة التي أبعدت الإنسان عن أمنه وأمانه الروحي، فراحت تتعاركه الأزمات النفسيَّة وتتغلَّب عليه، بسبب ما يعانيه من هشاشة داخليَّة؟! إنَّ الفردانيَّة صورة من صور هذه الفلسفات الهدَّامة التي وإن حاول الغرب عدم إلقاء اللوم عليها؛ لأنَّها صنيعة يديه، فإنَّ أثرها ملموس بقوَّة على أرض الواقع، ولا يمكن إنكاره.

هـ-فقدان الانتماء:

لا شكَّ في أنَّ أحد آثار الفردانيَّة السلبيَّة أنَّها بسعيها الدائم نحو تحقيق الحريَّة المطلقة على أرض الواقع، ما يؤدِّي إلى التسابق في تحقيق الغايات دون رابط يلزمها، أفقدت الإنسان الانتماء بمختلف صوره، ففَقَدَ الانتماء إلى الأسرة، والانتماء إلى المجتمع، والانتماء إلى الوطن، والانتماء الدين؛ ذلك أنَّ الانتماء في أبسط صوره هو الشعور العميق الداخلي بالارتباط بالأسرة، والمجتمع، والوطن، والدين. وخلافه يعدّ اغترابًا، وهو «من أهمّ المظاهر السلبيَّة في العالم

١ - موقع مكتب الأمم المتحدة الإلكتروني.
٢ - موقع مكتب الأمم المتحدة الإلكتروني.
٣ - موقع مكتب الأمم المتحدة الإلكتروني.

الحديث والمعاصر»[1]، لكن الفردانيَّة تعلن الاغتراب والانفصال عن كلّ هذا نتيجة سعيها إلى تحقيق المنفعة الذاتيَّة دون مراعاة لهذا، ويتعمَّق الانفصال شيئًا فشيئًا إلى أن يحدث الانفصال التام الذي يشعر فيه الفرداني أنَّ انتماءه لذاته فقط، ولا شيء غيرها.

فإذا كان الانتماء يُقصد به شعور الفرد باتصاله مع الجماعة[2]، فالفرداني فاقد لهذه الشعور، ليس بسبب الجماعة، ولكن بسبب شعوره بالانتماء إلى ذاته لا إلى الجماعة، فالانتماء هنا للأنا. وإذا كان الانتماء يعني إحساس الإنسان بأنَّه جزء من كلّ، سواء أكان هذا الكلّ أسرة أم مجتمعًا أم وطنًا[3]، فإنَّ الفرداني لا يشعر بذلك، ولكنَّه يشعر بفوقيَّته على الكلّ الذي نشأ فيه، ويتَّخذ من تحقيق رغباته وسيلة إليها. وإذا كان يوصف بأنَّه الحالة التي يكون فيه الإنسان جزءًا من بنية اجتماعيَّة محدَّدة داخل المجتمع[4]، فقد انسلخ كليَّة عن هذه البنية بفعل سعيه الدائم إلى الحريَّة غير المقيَّدة بسلطة هذه البنية.

و-ذوبان الهويَّة:

قد تكون الهويَّة فرديَّة، وقد تكون هويَّة جماعيَّة، الأُولى يعلن فيها الإنسان أنَّ هويَّته هو ذاته، والثانية يعلن؛ فيها أنَّ هويَّته من هويَّة المجتمع الذي ينتمي إليه. لكن الفردانيَّة تقود إلى اتباع طريق الأولى ذلك أنَّ الفردانيَّة المغالية تتصادم مع تقاليد المجتمع وأعرافه خاصَّة في قيمه الاجتماعيَّة، وهذا من شأنه أن يضعف الأسرة والمجتمع معًا، وهما من الركائز التي تشكّل الهويَّة بصورة عامَّة في أركانها: اللغة والدين والتقاليد والأعراف والتاريخ المشترك. فالدين مثلاً -وهو المكوّن الرئيس للهويَّة- ليس له مكان في النزعة الفردانيَّة؛ إذ تعدّه سلطة وقيدًا خارجيًا تسلّطيًّا لا يجب الخضوع له، ومن ثَمَّ تدفع الإنسان دفعًا إلى تحقيق رغباته دون النظر له، وهذا يعد ضربًا للهويَّة الدينيَّة، التي هي في التحليل الأخير جزء من الهويَّة العامَّة، وعليه فإنَّ موقف الفردانيَّة هنا هو الموقف الذي يقود إلى ذوبان الهويَّة بل واندثارها.

---

١ - حسن منصور: الانتماء والاغتراب، ص٧.

2 - English. H and English. A. Comprehensive Dictionary of psychological and psychanalytical term, pp42.

٣ - انظر: علاونة ربيع: الانتماء وعلاقته بتحقيق الذات، ص ٢٦.

٤ - انظر: علاونة ربيع: الانتماء وعلاقته بتحقيق الذات، ص ٢٦.

ز-إشاعة الشذوذ والمثليَّة الجنسيَّة:

من الآثار السلبيَّة للفردانيَّة إشاعة الشذوذ والمثليَّة الجنسيَّة في المجتمع، وهذا ناتج عن الحريَّة غير المقيَّدة بسقف والتي يؤسَّس عليها الفرداني مواقفه، وما دامت الفردانيَّة تتيح للإنسان أن يفعل ما يشاء وقتما يشاء بالكيفيَّة التي يشاء، فلا مانع بناءً على ذلك من أن يمارس رغباته الجنسيَّة كيفما يريد دون أن يعيقه عائق، أو يمنعه مانع. إن المتأمِّل في الإحصائيات السكانيَّة في الدول الأوروبيَّة يجد أنَّ متوسِّط أعمار السكَّان من كبار السكَّان بلغ نسبة كبيرة جدًا، وهذا يمثِّل انهيارًا ديمغرافيًّا، هذا الانهيار الديمغرافي كما أطلقت عليه صحيفة لوفيغارو الفرنسيَّة لا يعود، حسب الدارسين، لتخلّف علمي ولا تقهقر اقتصادي، وإنَّما يعود بالدرجة الأولى إلى تداعيات انتشار ممارسات وأفكار شاذَّة في أوروبا مثل الشذوذ الجنسي، والنسويَّة التي شجعت، حسب دراسة للباحث (جون جونسون لويس-John Wilson Lewis) نشرت في نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٢٠، على تقويض النظام الأسري، ومحاربة مفاهيم الأسرة والأبوَّة والأمومة والزواج وحتى الأنوثة والذكورة[1]. وما كان للشذوذ والمثليَّة وغيرها من الممارسات الجنسيَّة الشاذَّة أن تتمكَّن من المجتمعات الغربيَّة لولا الفردانيَّة الحديثة التي تغلغلت في صميم هذه المجتمعات، وأفرزت هذه النتوءات، بما دعت إليه من أفكار الحُريَّة غير المقيدة، وإنكار السلطة الخارجيَّة: سلطة الدين وسلطة المجتمع، وإطلاق العنان للإنسان في أن يشبع نهمه الجنسي.

٤- آثار الفردانيَّة السلبيَّة في الدين:

أ-فصل الدين عن الحياة:

لا شكَّ في أنَّ الفردانيَّة بصورتها التي أوضحناها تتَّخذ من الدين عدوًّا لها؛ لأنَّها تعدّه من القيود الخارجيَّة، أو الإلزامات الخارجيَّة التي تعطّلها عن تحقيق غاياتها ورغباتها، وتقف حجرة عثرة أمام ذلك، ومن ثَمَّ ينفصل الإنسان عن الدين، وشيئًا فشيئًا يجري الفصل التامّ بين الدين والحياة، لكن هذا لا يعني انتفاء الدين كليَّة، وإنَّما سيكون الدين حسب الهوى، فدينه قد يكون

١ - انظر: أحمد محمد فال: الشيخوخة والشذوذ والنسوية.

في التجارب الروحيَّة، أو التوغُّل في الإلحاد أو اللا أدريَّة أو اللا دينيَّة؛ حيث إنَّ «الاعتراف بالدين في الفردانيَّة الغربيَّة يُقبل من حيث هو اختيار شخصي، أمَّا من حيث كونه وضعًا إلهيًّا يسوق ذوي العقول السليمة لما فيه الخير فإنَّه يعتبر عندهم إكراها خارجيًّا»[1].

ب-التزيي بزيّ الإلحاد.

هنـاك ارتباط وثيق بـين الفردانيَّة والإلحـاد، أو هي على أقل تقدير تعـدّ واحدة من مغذِّيات الفكـر الإلحادي والعمل على انتشـاره داخل المجتمعات الغربيَّة؛ حيـث إنَّ تعظيم الأنا الذي تقوده الفردانيَّة وإعلائها قيمة الإنسـان على ما عداها تجعلها تضع نفسـها موضع عدم الالتزام بالدين بوصفه سـلطة ملزمة؛ فالدين يقوم على مجموعة من الضوابط التي تأباها، ومن ثَمَّ تطلق للإنسـان العنان في عدم الخضوع لـه، فضلاً عن الإقرار به. إنَّ مضمـون الفردانيَّة تقديس الأنا وعـدم الاعتراف بأي قوَّة خارجيَّة، ولو كانت هـذه القوَّة هي الإله ذاته، وهنا تتلاقى مع الإلحاد الـذي ينكر الاعتراف بأي قوى خارج الحسّ الإنسـاني. وهذا يفسِّر ضعف كليهما عن مواجهة الإشكاليَّات العميقة فيجري اللجوء إلى الانتحار؛ ذلك أنَّ شخصيَّة الفرداني أو الملحد أضعف بالمقارنة بأهل الإيمان التي تكوّن شخصيَّتهم أقوى[2].

ج-تهميش دور الدين:

ومـن الآثـار السـلبيَّة للفردانيَّة في المجـال الديني أنَّها همَّشـت دور الديـن في قلوب أبناء المجتمعات الغربيَّة، فعمدت إلى فصله عن الحياة، وجعلت سـلطته على الفعل الخُلُقي سلطة غير موجودة، وغير معترف بها، بدعوى أنَّ الإنسان يجلب لنفسه المنفعة والسعادة بالطريقة التي تحلو له دون التزام بدين أو عرف اجتماعي، تحقيقًا لما دعوا إليه من الحريَّة المطلقة. وهذا يؤدِّي لا محالة إلى مجتمع بهيمي لا يقيم وزنًا إلا لشهواته، ومن ثَمَّ يتوارى الدين خلف هذا الكمّ في النفـوس، ويقلّ دوره إلى أن يتلاشى نهائيًّا، وهذا ما بدا ملاحظًا في كثير من المجتمعات الغربيَّة الآن بصورة أكثر بشـاعة. ومن ثَمَّ فإنَّ أشـدَّ قضايا الحداثة الغربيَّـة خطورة فصلها الأخلاق عن

١ - محمد يوسف القضاة: تأثير الفردانية الغربية على الأسرة المعاصرة -دراسة في ضوء الفكر الإسلامي، ص١٦.

٢ - هنري لينك: العودة إلى الإيمان، ترجمة ثروت عكاشة، ص١١.

الدين[1]. خاصَّــة في عصر الذكاء الاصطناعي الذي يخرج الدين من حســاباته، حتى أنَّ بعض الغربيين يرى أنَّها منحت الإنسان قدرات إلهيَّة، وأنَّ الأخير تحوَّل من مرحلة الإنسان العاقل إلى مرحلة الإنسان الإله[2]، في تصريح واضح بإخراج الدين من حيِّز العصر الحالي.

كما أنَّ تهميش الدين يظهر في محاولة القضاء على الأخلاق التي حثَّ عليها، فموجة الإلحاد التي اســتشرت في المجتمع الغربي، وتغوّل النزعة الفردانيَّة عليه، تماشــت مع الرأسماليَّة التي أسَّست للفصل بين الاقتصاد والأخلاق، وهذا ما يجعل من اللازم عودة الأخلاق مرة أخرى، وهذا الأمر حدا بأحد الباحثين إلى القول: «فحاجتنا إلى الأخلاق تزداد كلّما قل تمسكنا بالدين»[3].

خاتمة:

لا شكَّ في أنَّ قضيَّة الفردانيَّة من القضايا المهمَّة ذات تأثير كبير في المجتمعات الغربيَّة فكرًا وســلوكًا على حدّ ســواء، ومن هنا كانت أهميَّة دراســة هذا الموضوع الحيوي في هذا البحث الذي حاولنا فيه الكشــف عن علاقتها بالإنســان المنفصل، ومغذّياتها وآثارها السلبيَّة في الأسر والمجتمعات الغربيَّة الحديثة. ومن ثَمَّ نخلص من دراســة الإنسان المنفصل والفردانيَّة الغربيَّة إلى النتائج الآتية:

- أوَّلًا- إنَّ الإنسان المنفصل والفردانيَّة الغربيَّة الحديثة وجهان لعملة واحدة، فالإنسان المنفصل نتيجة منطقيَّة للأفكار والأســس التي قامت عليها الفردانيَّة الغربيَّة، خاصَّة في دعوتها البهيميَّة للإنسان إلى تحقيق كلّ رغباته دون الالتزام بأي سلطة تذكر، سواء أكانت دينيَّة أم اجتماعيَّة أم غيرهما؛ لأنَّها في نظر الفردانيَّة ســلطات تعوق الإنســان عــن تحقيق غاياته الدنيويَّــة التي تقوده في ظنّها إلى الســعادة والمنفعة. ومن ثَمَّ فإنَّ الفردانيَّة تأخذ بتلابيب الإنسان إلى الانفصال التام عن المجتمع؛ لأنَّ تحقيق الرغبات

١ - انظر: طه عبد الرحمن: بؤس الدهرانية.. النقد الائتماني لفصل الأخلاق على الدين، ص١٢.
٢ - انظر: يوفال نوح هراري: الإنسان الإله .. من الهومو سابينس إلى الهومو ديوس، ص٧.
٣ - أندره كونت سبونفيل: هل الرأسمالية خُلُقيَّة؟، ص٣٨.

الفرديَّة دون مراعاة للضوابط تصنع جدارًا عازلاً بين الإنسان ومجتمعه بقيمه وتقاليده وهويته، وهذا يعني أنَّ الإنسان المنفصل ابن الفردانيَّة الحديثة وربيبها، أو توأمها الذي لا يستطيع عنها فكاكًا.

- ثانيًا- إنَّ الفردانيَّة كانت لها مجموعة من المغذّيات الفكريَّة والفلسفيَّة؛ إذ إنَّ الفردانيَّة لم تكن نبتة بلا جذور، أو تيَّارًا غير ذي مقدّمات، فقدت كانت مغذّياتها كثيرة، بحيث تعدّ تعبيراً عـن تطوّر الفكر الغربي، فكلّ مرحلة من مراحل الفكر الغربي المؤسّـس عـلى التطوّر العلمي وإن كانت تعبـيراً عن تطوّر علمي، فقد كانـت أيضًا تعبيراً عن التوغّـل الموحش في الفردانيَّـة. ومن هنا يمكننـا القول إنَّ الفردانيَّـة كانت حاضرة منـذ عصر الثورة الصناعيَّة وإلى وقتنا الحاضر، أخـذت تتغذَّى وتتطوَّر حتى صارت بصورتها الموحشة التي عليها الآن. فلا يمكن أن نغفل دور الفلسفة الماديَّة في ترسيخ أسس الفردانيَّة في المجتمعات الغربيَّة بالقدر ذاته الذي قامت به الفلسفة البراجماتيَّة والفلسـفة الوجوديَّة، فضلاً عن التيارات العلمانيَّة والليبراليَّة والتنويريَّة، فكلّها كانت المعين الذي نهلت منه الفردانيَّة الغربيَّة الحديثة أسسها ووسائلها وغاياتها.
- ثالثًا- تعد الآثار الناتجة عن الفردانيَّة في المجتمعات الغربيَّة –في جانبها السلبي- آثارًا خطيرة ومدمِّرة، وهي ليست على صعيد الفرد فقط، بل تتعدَّى آثارها الأسرة والمجتمع والدين. فعلى صعيد الفرد كانت آثارها ظاهرة في الانعزاليَّة والوحدة، والشـعور باللا جدوى، والنرجسيَّة، وجعل الذات مصدر المعرفة ومصدر المعيار الخُلُقي، وفقدان الإنسان للروحانيَّة. ومن حيث آثارها السـلبيَّة على الأسرة: تفكيك الروابط الأسريَّة، زيادة معدَّلات الطلاق، وتكوين أسر غير شرعيَّة، وعقوقيَّة العلاقة بين الآباء والأبناء. ومن حيث آثارها السـلبيَّة عـلى المجتمع: انفصال الروابط والصـلات الاجتماعيَّة، وتعرّض ديمغرافيَّة السكان للخطر، وتفشّي الانتحار في المجتمع، وإشكاليَّة الإدمان، وفقدان الانتماء، وذوبان الهويَّة وإشكاليَّة الانتحار، وإشاعة الشذوذ والمثليَّة الجنسيَّة. ومن حيث آثارها السـلبيَّة على الدين: فصل الدين عند الدولة، والتزيّي بزي الإلحاد، وتهميش دور الدين.

المصادر والمراجع:

أولًا- المراجع العربيَّة:

- آدم سميث: ثروة الأمم، ترجمة: حسني زينه، معهد الدراسات الاستراتيجيَّة، بغداد- بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.
- أندره كونت سبونفيل: هل الرأسماليَّة أخلاقيَّة؟ ترجمة: بسام حجار، دار الساقي، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.
- باتريك بوكانان: موت الغرب.. أثر شيخوخة السكان ومزتهم وغزوات المهاجرين على الغرب، السعوديَّة، العبيكان، ط١، ٢٠٠٥م.
- برتراند رسل: ما الذي أومن به.. مقالات في الحريَّة والدين والعقلانيَّة، ترجمة: عدي الزغبي، دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع، سوريا، ط١، ٢٠١٥م.
- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، الشركة العالميَّة للكتاب، بيروت- لبنان، ط ١، ١٩٩٤م.
- جيل ليبوفتسكي: عصر الفراغ.. الفردانيَّة المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ط١، ٢٠١٨م.
- حسن الكحلاوي، الفردانيَّة في الفكر الفلسفي المعاصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- حسن منصور: الانتماء والاغتراب.. دراسة تحليليَّة، أمواج للنشر والتوزيع، بيروت، لا ط، ٢٠٢١م.
- روزنتال ويودين وآخرون: الموسوعة الفلسفيَّة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، لا ط، لا ت.
- زكريا إبراهيم: الفلسفة الوجوديَّة، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٥٦م.
- طه عبد الرحمن: بؤس الدهرانيَّة.. النقد الائتماني لفصل الأخلاق على الدين، الشبكة العربيَّة للأبحاث والنشر، بيروت- القاهرة، ط٢، لا ت.
- عباس محمود العقاد: أفيون الشعوب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط١،

٢٠١٣م.

- عبد الحميد العبيدي: «قراءة نقديَّة في الأسس الأيدلوجيَّة للفردانيَّة وراهنيَّتها في المجتمعات العربيَّة»، مجلة عمران، ٢٠٢٠م، العدد ٣٢.
- عبد الرحمن بدوي: دراسات في الفلسفة الوجوديَّة، المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- عبد الوهاب المسيري: الفلسفة الماديَّة وتفكيك الإنسان، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ.
- علاونة ربيع: «الانتماء وعلاقته بتحقيق الذات»، مجلة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، الجزائر، العدد ٣٠، سبتمبر ٢٠١٧م.
- علي شريعتي: النباهة والاستحمار، الدار العالميَّة للطباعة والنشر والتوزيع، بيرت- لبنان، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، دراسة وتحقيق: حسن مجيد العبيدي منشورات ضفاف، بيروت، ٢٠١٤م.
- كريستوفر باتلر: ما بعد الحداثة، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ط١، ٢٠١٧م.
- لويس دومون: مقالات في الفردانيَّة: منظور أنثروبولوجي للأيدلوجيا الحديثة، مركز دراسات الوحدة العربيَّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.
- ماكس شتيرنر: الأوحد وملكيّته، منشورات الجمل، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠١٦م.
- مجدي وهبة: كامل المهندس، معجم المصطلحات العربيَّة في اللغة والأدب، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط٢، لا ت.
- محمد الفيومي: الوجوديَّة فلسفة الوهم الإنساني، مكتبة الأنجلو المصريَّة، القاهرة، ط١، ١٩٨٣م.
- محمد خضر شبير: دراسة ناقدة للفلسفة البراجماتيَّة في ضوء المعايير الإسلاميَّة، رسالة ماجستير بكليَّة التربيَّة، الجامعة الإسلاميَّة، غزة، ٢٠١٠م.
- محمد يوسف القضاة: تأثير الفردانيَّة الغربيَّة على الأسرة المعاصرة، دراسة في ضوء الفكر الإسلامي، رسالة ماجستير بكليَّة الدراسات الإسلاميَّة، جامعة حمد بن خليفة، ٢٠٢٤م.

- مصطفــى غلوش: «الوجوديَّة في الميزان»، مجلة رســالة الإمام، المجلس الأعلى للشــؤون الإسلاميَّة، القاهرة، العدد٤، أغسطس، ١٩٨٥م.
- نورة عابد: مفهوم الفردانيَّة في الفكر الفلسفي المعاصر.. مجلة مقاربات فلسفيَّة، ٢٠١٧م، العدد١، لا ت.
- هنري لينك: (العودة إلى الإيمان)، ترجمة: ثروت عكاشــة، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، ١٩٩٦م.
- يمنى طريف الخولي: تيارات الفلسفة في القرن العشرين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠٢٣م.
- يوفال نوح هراري: الإنسان الإله .. من الهومو سابينس إلى الهومو ديوس، ترجمة: علي بدر، دار إلكا للنشر، لا ط، لا ت.

ثانيًا- المراجع الأجنبيَّة:

- Ellen Meiksins Wood: Mind and Politics: An Approach to the Meaning of Liberal and Socialist Individualism. University of California Press. 1972.
- - English. H and English. A: Comprehensive Dictionary of psychological and psychanalytical term, man long, (1983).
- - Hayek, F.A.: The Road to Serfdom. United States of America: The University of Chicago Press. (1994).
- - John Macquarie, Existentialism, New York, (1972).

- ثالثًا- الروابط الألكترونيَّة:

- أحمد محمد فال: الشيخوخة والشذوذ والنسويَّة.. أرقام تعكس تحول أوروبا لمجتمع مهدد بالفناء، مقال منشوؤ على موقع الجزيرة نت، على الرابط الآتي:
- <https://www.ajnet.me/politics/20249/6//
- ألكسندر لوسون: معدلات الطلاق العالميَّة ٢٠٢٥: تحليل شامل، منشور بتاريخ ٧ أغسطس

٢٠٢٥ على الرابط الآتي:

- https://soulmatcher.app/ar/blog/global-divorce-rates-2025-a-comprehensive-analysis>/<
- جلال عبد الحسن: مفهوم الفردانيَّة في الإسلام.. من الفوضى إلى التقنين، منشور في ٤/ ١/ ٢٠٢١م، بموقع وكالة كربلاء الآن، على الرابط الآتي:
- <https://karbala-intel.net/arabic/2203>
- دراسة بعنوان:٤٣٪ من أطفال أوربا ولدوا خارج إطار الزواج، موقع الجزيرة نت، على الرابط الآتي:
- <https://www.ajnet.me/misc/201843/9/8/>
- طارق السـيد: ظاهرة الانتحار في الغرب ، منشـور بتاريخ ٢٧ يوليـو ٢٠١٧م ، على الرابط الآتي :
- https://www.lahaonline.com/articles/view/53984.htm
- محمد علي عـز الدين: الفردانيَّة: جذورها، آثارها الكارثيَّة والبديل الإسـلامي، منشـور في سبتمبر ٢٠٢٤م بموقع المعارف الحكميَّة للدراسات الدينيَّة والفلسفيَّة، على الرابط الآتي:
- https://maarefhekmiya.org/individualism/
- <https://www.ons.gov.uk/peoplepopulationandcommunity/birthsdeathsandmarriages/ageing/articles/olderpeoplelivingincarehomesin2021andchangessince201109#-10-2023/>
- https://www.ajnet.me/politics/202517/12/
- https://www.lahaonline.com/articles/view/17553.htm
- http://www.who.int/mental_health/prevention/suicide/suicideprevent/en
- https://arabic.euronews.com/health/202429/12//one-third-europeans-tried-illegal-drugs-most-addicted-countries
- https://unis.unvienna.org/unis/uploads/documents/nar1499ar.pdf